

الفصل الثاني عشر

وإنني لأراها في طريقها نحو الشرق فيمتلئ قلبي رحمة لها وإعجاباً بها وخوفاً عليها. وأي قلب لا يرحم فتاة غرّة لم تكد تتجاوز سن الصبا وقد قذفت بها الأحداث في لجة الحياة الممتلئة بالخطوب والأهوال، وهي وحيدة ليس لها عون، قد صفرت يدها من كل شيء، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إفعاماً، وعجزت نفسها حتى عن الأمل، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً، لا تريد شيئاً إلا أن تخلص من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً، وتفلت من هذا الشيطان المريد الذي كانت توشك أن تلقاه إن أقامت أياماً.

وأني قلب لا يُعجب بهذه الفتاة الغرة التي لم تكد تتجاوز الصبا، والتي فرت من أهلها فهي تسعى لا تلوي على شيء، نحيلة هزيلة بائسة كئيبة لا تدري أين ينتهي بها المسير، ولا تعرف كيف يتاح لها القوت، بل لا تفكر في شيء من هذا، وإنما تمضي أمامها مسرعة في المضي يدفعها عزم لا يعرف الكلال، وبغض للشر لا هوادة فيه، وثقة بالعدل لا حد لها.

وأني قلب لا يخاف على فتاة غرة لم تتجاوز الصبا تسعى وحدها في الطريق العامة إلى غير غاية، وقد صاحبها الفقر والحاجة والضعف وحداثة السن وشيء من جمال يغري بها كل غوي، ويطمع فيها كل مفسد، وما أكثر الغواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوي بين قرى الريف!

لك الله أيتها الفتاة الناشئة! إلى أين تذهبين؟ ألم تفكري في هذه الكوارث والخطوب التي تضمهرها الحياة للضعفاء والبائسين، وللضعيفات والبائسات خاصة، وتتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر خصب للشر والضر، وينبوع غزير للسيئات والآثام؟ ألم تفكري في هذه الأقايص التي كان يمتلئ بها صباك والتي كانت تسلي نهارك